عقيدة الشك في كتابة السيرة النبوية من خلال منهج المستشرق مونتغمري وات

The Doctrine of Doubt in Writing the Prophet's biography through the method of the Orientalist Montgomery Watt

بلقاسم بواشرية *

جامعة ابن خلدون – تيارت- ملحقة قصر الشلالة

belkace1980@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/11 تاريخ القبول 2022/09/18 تاريخ النشر 2022/10/13

ملخص:

لقي موضوع السيرة النبوية اهتماما كبيرا من قبل الدراسات الاستشراقية، فتعددت جوانب معالجتها؛ كما تنوعت أفكار المستشرقين بين التعصب والاعتدال، بل إن أغلبهم طغت عليه النزعة الصليبية القادحة في الاسلام ككل؛ وفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص، ومن بين هؤلاء المستشرقين البريطاني (مونتغمري وات) الذي بنى أفكاره وكل دراساته حول السيرة النبوية على الشك كعقيدة ثابتة؛ في معالجته لكل ما تعلق بحياة النبي عليه الصلاة والسلام، حتى وإن ادعى الحيادية والموضوعية تحت غطاء التحليل النفسي والاجتماعي والاقتصادي للوقائع التاريخية.

الكلمات المفتاحية: السيرة النبوية، محمد عليه الصلاة والسلام، الاستشراق، الشك، مونتغمري وات.

Abstract:

The subject of the Prophet's biography has received great attention from oriental studies, so there are many aspects of its treatment. The ideas of the Orientalists also varied between fanaticism and moderation. Indeed, most of them were overshadowed by the blasphemous Crusader tendency

* المؤلف المراسل

in Islam as a whole. And in the Prophet Muhammad -peace and blessings be upon him- in particular, and among these British orientalists (Montgomery Watt), who based his ideas and all his studies on the Prophet's biography on skepticism as a fixed belief; In his treatment of everything related to the life of the Prophet -peace and blessings be upon him-, even if he claims impartiality and objectivity under the cover of psychological, social and economic analysis of historical facts.
key words: Prophet's biography, Muhammad -peace be upon him-, Orientalism, doubt, Montgomery Watt.

مقدّمة:

كان لعلاقات الاحتكاك المبكرة بين المسلمين والمسيحيين دور كبير في ظهور فئة من الكتّاب والمؤرّخين الغربيين، اهتمّوا بكل ما تعلق بالحضارة الاسلامية من دين وثقافة ولغة وتراث، حتى أنّهم باتوا متخصّصين في ذلك وكأنّهم أكثر اهتماما من المسلمين أنفسهم، منهم المستشرق البريطاني "مونتغمري وات"، إذ يعتبر مثالا بارزا من بين هؤلاء، حيث قضى عمره الذي قارب المائة سنة، قضاه مهتما بكل ما تعلق بسنّة النّبي صلّى الله عليه وسلّم وسيرته الشريفة، ولكن الملاحظ في هذا رغم ادّعائه اتّباع المنهج العلمي الموضوعي؛ فقد حاد عن الطريق الذي رسمه لنفسه في جل كتاباته.

ولقد وقع اختيارنا على هذا المستشرق دون غيره، فلأنّه من أكثرهم تعقيدا في منهج كتاباته، إذ يدّعي شيئا، ثم سرعان ما يتناقض مع نفسه في إبداء أو تأييد أو نفي لرأي ما؛ لا يتوافق مع هواه، حتّى وإن كان واضحا بعض الشيء في مخالفته للكثير من المستشرقين المتعصّبين الذين طعنوا صراحة في النّبي محمد عليه الصّلاة والسّلام، لكنّه سرعان ما يصرح أو يبدي اشارات أو مفاهيم يفهم القارئ من خلالها منعرجات خطيرة قد لا يصرّح بها حتى أولئك الذين آخذهم على تعصّبهم الديني والعقيدي.

وعليه فمن يكون هذا المستشرق؟ وما هو المنهج الذي اتبعه في كتاباته عن النبي محمد عليه الصّلاة والسّلام؟ وماذا قال عنه الكتّاب المسلمون؟ بل ما الهدف من اهتمامه بسيرة المصطفى صلّى الله عليه وسلم؟ وهل الشّك عند وات مجرّد آراء وتساءلات الغرض

منها الوصول إلى حقيقة الرّسالة الإسلامية؟ أم أنّه يمثّل عقيدة وخلفية فكرية وثقافية تشبّع بها لمحاربة الاسلام والمسلمين؟

ومن أجل الاجابة ولو تقريبية لهذه الاشكالية وغيرها، لأنّنا لسنا بصدد الردّ عليه بقدر تبيان ما وقع فيه من سوء تجاه سيرة المصطفى عليه الصّلاة والسّلام، فقد اعتمدت منهج عرض آراء بعض المؤرّخين حول ما كتبه وات، ومن ثم مقارنتها، مستدلاّ ببعض ما ذكره في كتاباته، إذ تعددت المناهج التي اتبعها في ذلك؛ حسب ما ذهب إليه جمهور الكتاب المسلمين، ولهذا عرضت تلك المناهج ومن ثم أخضعتها للتقييم الخاص، وهذا ما سيتضح خلال عرض الموضوع.

أولا– من هو مونتغمري وات:

وهو وليام مونتجمري وات Montgomery watt مستشرق بريطاني اسكتلندي، ولد في مدينة كريس فايف يوم 14 مارس 1909م، والده كان قسّيسا وهو أندرو وات، أكمل دراسته في أكاديمية لارخ بين عامي (1914م– 1919م) وفي كلية جورج واتسون في جامعة أدنبرة (1927م– 1930م)، وكلية باليول بأكسفورد(1930م– 1933م)، وجامعة جينا بألمانيا 1933م، وجامعة أكسفورد عامي (1938م– 1939م)، وجامعة أدنبرة ما بين (1940م– 1943م) وبها نال الأستاذية عام 1964م[1].

ثانيا– أعماله ومؤلّفاته:

عاش وات حوالي 97 سنة (1909م– 2006م)، قضى جلّ عمره في دراسة المسيحية والإسلام على السّواء، متقلّدا لمهام لا تعدو هذا التخصّص، فمن شمّاس في الكنيسة الأسقفية الاسكتلندية عام 1939م وكاهن عام 1940 وراع على عدة كنائس في لندن وأدنبرة ما بين (1940م– 1943م)، إلى أستاذ ورئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية ما بين 1947م– 1979م، حيث تولى مهمّة تدريس عقيدة وتاريخ

وحضارة الاسلام لعدة أجيال، عُرِف بين طلابه ذلك المتعصّب لنزعته التنصيرية، كما عمل وات أستاذا زائرا في جامعة تورنتو عامي 1963م، و1978م، وكلية فرنسا في باريس عام 1970م، بالإضافة إلى جامعة جورج تايون بواشنطن عام 1978م/1979م، وبعد تقاعده عام 1979م عمل راعيا لإحدى الكنائس في أدنبرة إلى غاية وفاته في 24 أكتوبر عام 2006م[2].

لعلّ ما تركه وات من مؤلّفاته وآثاره تدل على أخباره، رغم أنّه كان راهبا وراعيا لعدّة كنائس؛ إلاّ أنه لم يترك أي أثر فكري حول المسيحية؛ باستثناء ما كانت له علاقة بالإسلام ككتاب "العلاقات الاسلامية النصرانية"، وكتاب "الاسلام والمسيحية في العالم المعاصر"، أما باقي مؤلّفاته التي قاربت العشرون؛ فكلّها حول الإسلام، خاصّة ما تعلّق بالنّبي محمد صلّى الله عليه وسلم وسيرته السمحاء، فقد سمح لنفسه في جانب الاسلام ما لم يسمح لها في جانب المسيحية دينه وعقيدته التي مات عليها.

ومن أشهر مؤلّفاته كتاب "محمّد في مكة" ترجمة عبد الرحمن الشيخ حسين عيسى (عام 1953م) وأعاد تعريبه شعبان بركات (عام 1966م)، وكتاب "محمد في المدينة" ترجمة شعبان بركات سنة 1956م أعيد طبعه عام 1977م، وهذين الكتابين شملا كل ما عاشه النبي صلى الله عليه وسلم سواء في مكة قبل البعثة وبعدها، أو ما قضاه النبي من باقي حياته بعد الهجرة إلى المدينة، ومن خلالهما استطاع وات أن يلمّ بدراسة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، لكن من وجهة نظره هو وفقط ومن على شاكلته من المستشرقين، وليس كما جاءت بروحها الطاهرة التي كانت واقعا معيشا.

ثالثا– ما قيل عن منهجه في كتابة السيرة النبوية:

من خلال الاطلاع على ما كتب وات حول السيرة النبوية، فإنه كثيرا ما استعمل أسلوب الدّس والتضليل على القرّاء؛ وهذا أول ما يفتتح به مثلا كتابه (محمد في مكة)، حيث يدعي أنه ينتهج أسلوبا محايدا في كتاباته، إذ يقول: "...وقد وُضِع الكتاب قبل

كل شيء لفئة المؤرخين، أما فيما يتعلق بالمسائل الفقهية التي أثيرت بين المسيحية والإسلام فقد جهدت في اتخاذ موقف محايد منها.."[3]، ويسترسل في شرح منهجه وأسلوبه الذي يدعيه وهو في نفس الوقت يبث شكوكه بين عبارات الحياد والموضوعية حسب نظره، حيث يضيف إلى كلامه السابق "...وهكذا بصدد معرفة ما إذا كان القرآن الكريم كلام الله أو ليس كلامه، امتنعت عن استعمال تعبير مثل: "قال تعالى" أو "قال محمد"، في كل مرة استشهد فيها بالقرآن..."[4]، ويضيف مرة أخرى: "وأقول لقرائي المسلمين : فقد ألزمت نفسي...أن لا أقول أي شيء يمكن أن يتعارض مع معتقدات الاسلام الأساسية..." [5].

لقد ادّعى وات في أكثر كتاباته كما يقول ماهر الشمّري بأنه حيادي وبعيد عن الأساليب التي اتّبعها معاصروه من رجال الفكر والعلم الأوربيين، لكن سرعان ما يقع في الخطأ ويتجنّى على الاسلام والمسلمين[6]، بل زاد على أساليب من سبقوه؛ من خلال دمجه للاتجاهات الفكرية المعاصرة كعلم النفس الديني حسب رأيه[7] في تحليل شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وما شابه ذلك.

وعليه فإن وات مثله مثل باقي المستشرقين الذين حشروا أنفسهم في دراسة الحضارة الإسلامية، بل السيرة النبوية، وقد لخص لنا بعض الباحثين المناهج العديدة التي اتبعها وهي:

أ– منهج الأثر والتأثّر:

ويعود بنا وات إلى البدايات الأولى من حياته صلّى الله عليه وسلم، أي منذ خروجه لأول مرة في تجارة عمه أبي طالب نحو الشّام، وإلتقائه ببحيرا الراهب، إذ يدّعي أنه عليه الصّلاة والسّلام قد تأثّر بالأفكار النصرانية، وهناك حادثة أخرى استغلّها وات ليثبت لقرائه مرة أخرى أن النّبي صلّى الله عليه وسلم، قد تأثّر أيضا بأفكار ورقة بن نوفل

النصراني حين ذهبت به زوجه خديجة رضي الله عنها إليه، ولعلّ ما قدّمه ورقة للنّبي يُعدّ أفكارا أثّرت بشكل كبير على التطوّرات اللّاحقة – حسب رأيه–[8].

والملاحظ في هذا أن ورقة بن نوفل الذي لم تذكر كتب التاريخ دون استثناء؛ أنه مكث مع النّبي صلّى الله عليه وسلم مدّة لا تزيد إلا على لحظات بعد نزول الوحي؛ يقول عنه وات أنه قد تأثّر به عليه الصّلاة والسّلام حتى وكأنّ الاسلام ما هو إلا نتاج أفكار نصرانية تلقّاها عن ورقة بن نوفل، لكن السّؤال الذي يطرح نفسه في هذا السّياق، لماذا يُحجم وات عن الكلام الذي قاله ورقة للنّبي صلّى الله عليه وسلم، حسب ما أورده كُتَّاب السيرة وكل المؤرخين المهتمين بالتاريخ الإسلامي؟ أي لماذا لم يقدّم هذا الكلام كمادة يثبت بها تأثّر ورقة بما جاء به النّبي عليه الصّلاة والسّلام وليس عكس ما يدعيه؟

يظهر من خلال هذا أن وات يحاول تجاوز كل كلام لا يؤيد أفكاره التي يؤمن بها هو وفقط، إذ لو كان صادقا فيما يدّعيه من حيادية،؛ وأنّ ما يكتبه موجّه للمؤرخين؛ لنقل الحوار الذي جرى بين ورقة بن نوفل والنّبي عليه الصّلاة والسّلام ولوضع هذا الكلام في ميزان العدل، وتمعّن فيه جيدا، خاصّة وأنّه هو نفسه يورد هذا الكلام في كتابه "محمد في مكة"[9]، لكنّه يتعامى عمدا عن ذلك، وفرضا لو فعل ذلك لَثَبَتَ عنده أن المتأثّر هو ورقة وليس النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وهذا ما لا يريده وات أن يحدث.

هناك حادثة أخرى يدّعي فيها وات أن النّبي عليه والصّلاة والسّلام قد تأثّر بالأفكار اليهودية والنصرانية، وذلك بعد هجرته صلّى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأنّه نقل عنهم ما يكفيه لصياغة ديانة جديدة وهي الإسلام، والإسلام في نظر وات ما هو إلا تجميعات مختلفة منقولة ومنحولة عن اليهودية والنصرانية.

ما يلاحظ هنا أن وات دائما يسلك سبيل الشك لإثبات شيء يؤمن به هو وحده، ويأباه المنطق التاريخي فما بالك بالحقيقة الدينية، وبالتّالي فإن "هذا المنهج لا يخلو من أهداف تنصيرية وتهويدية، فهو يحاول اقناع اليهود والنصارى بالثّبات على عقيدتهم، ومن

جهة أخرى يحاول اقناع المسلمين بالعودة للأصل الذي أخذ منه الاسلام أفكاره (اليهودية والنصرانية)"[10]، وهذا ما يؤكّده وات في موضع آخر:"ونلاحظ أن القرآن لا يذكر وجود الله على أنّه شيء يجهله محمّد أو الذين كان عليه أن يبلغهم رسالته...وهذا يميل إلى التأكيد أن فكرة "الله" قد تسرّبت إلى العرب من التوحيد اليهودي والمسيحي"[11]، وهذه وجهة نظر بذل ليس وات وحده بل جل المستشرقين جهودهم لإثباتها للرأي العام وليس للمؤرخين فحسب.

ب- المنهج العلماني:

دائما ما يكتب وات حين يكتب يدّعي الحيادية وطرح الذاتية جانبا، ليطرح بذلك القناعات العقيدية والدينية عن القارئ المسلم فقط، أما هو فيحاول اثبات ما يؤمن به من جهة غير مباشرة، أي يستعمل عقيدته العلمانية لنفي عقائد الآخرين، "فالقول بأنّ محمّدا كان صادقا لا يعني بأن القرآن وحي حق وأنّه من صنع الله إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمّد كان مقتنعا بأن الوحي ينزل عليه من الله وأن نؤمن بأنه كان مخطئا"[12]، والشاهد في هذا أن وات لمّا يتحدّث عن النّبي عليه والصّلاة والسّلام فإنّه ينكر بعض ما جاء في حقّه دون خجل، وهي في نظر الكاتب جرأة العلماني الذي لا يتردّد في رد بعض الأخبار أو الأفكار التي لا يستوعبها؛ كمسألة الوحي مثلا لعدم اقتناعه بها، وبالتالي التشكيك في كل ما يفوق عقله البشري المحدود كالمعجزات وبعض الخوارق الخارجة عن المألوف الانساني، فكثيرا ما بث شكوكه في حادثة الاسراء والمعراج مثلا، إذ يقول بشأنها: "إن هناك العديد من القصص ذات الطابع الديني يكاد يكون من المتيقّن أنها ليست حقيقة من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية"[13].

ج- المنهج المادي:

يبدو أن الدراسات الحديثة كثيرا ما أخضعت حوادث التاريخ للتفسيرات الاقتصادية المادية، خاصّة بعد انتشار الشيوعية والاشتراكية ونجاحها كثورة سياسية واقتصادية مع

صعود الاتحاد السوفياتي كقطب عالمي، ولهذا نجد صاحبنا قد أعطى تفسيرات مادية لأحداث السيرة النبوية، متسائلا دائما عن الجذور الاقتصادية إلى جانب الجذور السياسية والاجتماعية للحركة التي بدأها النبي صلى الله عليه وسلم من غير اهمال للجوانب الايديولوجية[14].

ولهذا كثيرا ما ركّز وات على العامل الاقتصادي في موضوع الغزوات، إذ يقول عن معركة بدر مثلا: "...شجعت غنيمة غزوة نخلة سياسة الغزوات ضد القوافل المكية.."[15]، ويقول في موضع آخر: "...وقد نظر محمد إلى المستقبل ووجد أنّه يجب توجيه غرائز السّلب والنهب عند العرب نحو الخارج، نحو المجتمعات المجاورة لشبه الجزيرة العربية..." [16]، ولهذا "جاء أسلوبه متّسما بالنظرة المادية المفرطة التي تغيب في آفاقها الرؤى الغيبية التي كانت سببا رئيسا في مجمل أحداث الدعوة الاسلامية"[17].

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على جهل مطبق برسالة الدعوة الاسلامية السمحة، والتي قزّمها وات وحصرها في الجانب المادي البحت، وليس غريبا أن نجد هكذا تفسيرات للفتح الاسلامي في الآفاق البعيدة من مُتَفَيْقِهٍ مثل وات، فَدَيدَنه وجوهر هدفه هو تشويه صورة الاسلام والمسلمين لا غير في ثوب المؤرخ الحاذق، فهو طبعا يكتب لقرّائه الذين من أقرانه وأتباعه في المنهج والعقيدة وزرع الشك عند من تأثّر بمنهجه وكتاباته من المسلمين.

د- المنهج الاسقاطي:

كان للرؤية الغربية المعاصرة والمتمثّلة في الاسقاطات على الوقائع التاريخية القديمة حضور؛ في فكر وات كغيره طبعا ممّن سبقوه في مجال الكتابة عن السيرة النبوية، ولا نستغرب ذلك فهو وغيره يرون أن أحداث السيرة لا تعدو أحداث تاريخية كغيرها من الأحداث والوقائع، مثل ما تخضع للنقد والدراسة والتحليل يجوز اسقاط النظريات العقلية المعاصرة عليها، خاصة نظرية التدرج الديني، إذ يرى وات أن الاسلام اكتملت تعاليمه

تدريجيا، حيث يقول: "إنّ أقدم أجزاء القرآن لا تحتوي على أي هجوم على الوثنية، بل كانت تقول بوجود توحيد غامض عند أتباع محمد، ثم أخذ الالحاح يشتد على وجود إله مع اشتداد النقد لعبادة الأصنام"[18]، ويقول في موضع آخر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه:"عدّ نفسه في البدء مرسلا لقريش خاصة، وليس لدينا أي وسيلة لمعرفة ما إذا كان فكّر بتوسيع أفق رسالته لتشمل العرب جميعا قبل وفاة أبي طالب أو بعدها، وقد اضطرّه تدهور وضعه مع ذلك أن ينظر إلى أبعد من ذلك فلا نسمع من ثم خلال سنواته الثلاث الأخيرة في مكّة إلّا عن علاقته بالقبائل البدوية وسكان الطائف ويثرب..".

ولعل ما رآه وات من التدرّج وظنّ أنّه قد حدث بفعل الظروف اللّاحقة للدعوة الاسلامية؛ وظهورها في شكلها الكامل ككيان سياسي واجتماعي واقتصادي، وكم كان وات جاهلا بالأسلوب القرآني الذي ينزع نحو التدرج في تثبيت العقيدة السليمة، لأن العقل العربي على وجه الخصوص قد ألف عادات تمتد لقرون لا يمكن انتزاعها منه وتغييرها في ظرف قصير، وهو أسلوب موغل في البلاغة لا يعلمه إلا من خلق ذلك العقل البشري فهو أدرى بمكنوناته ومكوناته، والرسول الكريم ليس سوى من مبلغ عن ربه.

ولمّا يأتِ مثلا على ذكر الفرق بين أسلوب النّبي عليه الصّلاة والسّلام والأسلوب القرآني؛ يلجأ إلى علم النفس التحليلي؛ فيدّعي "أن النّبي عليه الصّلاة والسّلام عندما يقرأ القرآن على الناس يكون في حال يضعف فيها الوعي الخارجي ويعمل وينشط اللاشعور أو العقل الباطن .." [19]، وكثيرا ما بثّ شكوكه في الوحي وأنه مجرّد حالات نفسية لا غير إذ يقول: " إن حالات الكشف والالهام والايحاء حالات لا شعورية...والوحي ظاهرة شعورية تتم بالوعي والإدراك التامّين والوحي بالمعنى المشار إليه يختص به الأنبياء..." [20].

هـ- منهج النفي والافتراض:

وإذا شئنا أن نقول بالمجمل فإن وات غلب على كتاباته كلّها في السيرة النبوية منهج التشكيك بل هو عقيدة راسخة لديه وهو صلب موضوع بحثنا هذا، فلو قمنا بتعداد كلمات وعبارات الشك في جل كتاباته لبلغت شطرها وأكثر، فهو على مبدأ راسخ لديه كلّما صادف حادثا ما؛ خاصّة إذا لم يقتنع به هو شخصيا فمباشرة يذهب إلى نفيه، وحتى يُظهر نفسه ذلك الباحث المتمعّن والمتمحّص في الأحداث التاريخية؛ فإنه يُقَدّم افتراضات من شأنها تزرع الشك عند القارئ المسلم فما بالك بقرائه المسيحيين أو الغربيين، وهو بهذا يستعمل أسلوب قلب الحقائق بإثبات المسائل التي قد تكون محل شك جائز ويحاول اثباتها ولو بالحجج الضعيفة؛ كأن يعتمد على الأحاديث الشاذة ربّما والضعيفة وحتى الموضوعة، ومن جهة أخرى يشكّك في المسائل الثابتة، وبذلك يحاول تأكيد الرواية الضعيفة أو الأقرب إلى الكذب، ويثير الشكّ في الرواية الصّادقة.

و– منهج البناء والهدم:

يقوم وات بالبناء على الرواية الاسلامية من أجل هدم ما بناه، حتى يستظهر الرؤية الغربية الاستشراقية، كأن يتحدّث مثلا عن حكمة النبي صلى الله عليه وسلم وبُعد نظره للأمور، ليؤكّد أن مثل هذا الحكيم لا يمكن أن يدعو قيصر الروم وكسرى فارس للدخول في الاسلام[21]، فليس من الحكمة أن يقوم محمّد عليه الصّلاة والسّلام الذي خرج من قلب الصحراء وتصل به جرأته إلى مخاطبة الأباطرة والأكاسرة ويدعوهم لإتباعه– حسب نظره– وهذا يدل على شيئين:

– إما أن وات يجهل تماما روح الدعوة الاسلامية والهدف من الرسالة السماوية التي جاء بها النّبي عليه الصّلاة والسّلام.

– إما أنه يحاول بذلك هدم فكرة "عالمية الاسلام" وأنه جاء لكل البشر[22].

حيث يتلاعب بكل عبارات التشكيك حتى ولو كان مدحا في سيرته صلى الله عليه وسلم، فهو لا ينفك يثبت شيئا ما؛ يعجبه ويقرّ به سرعان ما يحاول هدمه من جهة

أخرى أو على الأقل يبث سموم شكوكه حوله بعبارات يتقنها جيدا، هذا فضلا عن ما كان محل شك صريح لديه فحدِّث ولا حرج، "فأحداث السيرة عند وات كلّها محل شك.."[23].

رابعا– تقييم لمنهج وات:

أما منهج التأثّر الذي أخذ به، فإنّه يسعى من خلاله إلى إفراغ الاسلام من محتواه ومن كل ما جاء به، بل جعله منحولا عن الديانات السابقة (اليهودية والنصرانية)، ولو تأمّل وات ما يؤمن به من عقيدة لوجد الانتحال قوامها الذي تقوم عليه من المعتقدات القديمة (البابلية والفرعونية)، فكان أولى به أن ينظر فيما يعتقد من أساطير حتى يدرك جيدا معنى التأثير والتأثر، لا أن يشكك فيما هو ثابت وبيّن.

من جهة أخرى فالمنهج المادي والعلماني؛ لا يعدو أن يمثل النظرة الغربية المعاصرة القائمة على المادة وفصل الحياة الروحية عن الواقع المعيش، وهذا طبعا انعكاس لما يعيشه الغرب من فراغ روحي رهيب وحياة مادية جامدة.

أما المنهج الاسقاطي فقد أوردنا أعلاه أن جل ما يؤمن به اليهود والنصارى يعود إلى أصول المعتقدات القديمة الممزوجة بالأساطير، فـ"وات" يحاول اسقاط ما وقع على معتقداته وما لصق بها من خرافات– يحاول اسقاطها– على الاسلام وتعاليمه التي لا علاقة لها البتّة بما يدّعيه.

كما حاول وات أن يظهر نفسه ذلك البحاثة المعاصر الذي بلغ مبلغا لم يبلغه من سبقه في تطبيق النظريات المعاصرة المزعومة؛ كعلم النفس والنظريات الاقتصادية على أحداث السيرة النبوية المطهرة، ولكنه بلغ بذلك مبلغا عكس ما يدّعيه تماما من بلاهة فكرية لا غير، وبشهادة "إيتان دينيه" المستشرق الذي أنكر على كل المستشرقين جهودهم في محاولة نفي ما هو ثابت يقينا، إذ يقول: "إن هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي– صلى الله عليه وسلم– لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدفعون، ويمحصّون مزاعمهم

حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المسلمين من سيرة النّبي – صلّى الله عليه وسلم– ومع ذلك لم يتمكّنوا من إثبات أقل شيء جديد، بل إذا أمعنّا النظر في الآراء الجديدة التي جاء بها المستشرقون، لا نجد إلا خلطا وخبطا"[24].

أما منهج النفي لكثير من الوقائع والأحداث؛ بحجة أنها لا تدخل ضمن اطار الأحداث التاريخية كالوقائع الغيبية مثلا، في نفس الوقت يقدم الفرضيات الخاطئة ثم يحاول تقديم تحليلات ونتائج بنيت في الأصل على باطل، بنيت على الافتراء والكذب لا غير. من جهة أخرى يستغل بعض الأحداث الواضحة التي لا يجد سبيلا إلى نفيها للبناء عليها بعض أفكاره من أجل اعادة هدم ما هو أكثر منها، خاصة ما تعلق بشخصيته عليه الصّلاة والسّلام، كأن يُشِيد بحكمته صلّى الله عليه وسلّم، ثم يطعن في بعض التصرّفات بحجة أنها ليست من الحكمة بمكان.

[25]خامسا– الشك عقيدة ووسيلة وغاية:

1– الشك عقيدة: وقبل ذلك نقدم تعريفا للشك لغة واصطلاحا حسب ما ورد في المعاجم المتخصّصة:

أ– تعريف الشّكّ: وأما في **اللغة** فهو نقيض اليقين وجمعه شكوك، وشكّ في الأمر يشكُّ شكًّا وشكَّكَه فيه غيره، أنشد ثعلب:

من كان يزعم أن سيكتم حبه حتى يشكك فيه، فهو كذوب[26]

أما **اصطلاحا** فيعني حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الاثبات والنفي ويتوقف عن الحكم.

والشكاكون فرقة من الفلاسفة يترددون بين إثبات حقائق الأشياء وإنكارها ويسمّون (في الفلسفة الاسلامية):"اللاأدرية"وهم فريق من السفسطائيين[27].

ب– (المدرسة الاستشراقية الانجليزية):

إن المتتبع للمدارس الاستشراقية الأوربية يجد ذلك التنوع في اهتماماتها البحثية، حيث تخصّصت دراساتها كل في اتجاه معين، فالمدارس الفرنسية والهولندية اهتمت بالجوانب اللغوية والأدبية والدراسات المتعلّقة بالحضارة العربية، أما المدرسة الألمانية فاهتمت بجمع ونشر المخطوطات العربية ووضع المعاجم، أما المدرسة الروسية فكان جل اهتمامها بالتراث الإسلامي، وتبقى المدرسة البريطانية هي الرائدة في دراسة ما تعلق بالدين والعقيدة الاسلامية[28].

ولهذا تعد المدرسة البريطانية التي نشأ وات بين جدرانها الفكرية والثقافية، من أقدم مدارس الاستشراق التي أرادت تحقيق هدفين أساسيين هما: التنصير والاستعمار[29]، فحتى وإن لم تخلو كل الحركات الأوربية الاستعمارية من هذين الهدفين؛ إلا أن المدرسة البريطانية قد كان لها بُعد النظر في ضرب الاسلام والعقيدة الاسلامية من الداخل وقد يكون المعول هم أبناء البلد في حد ذاتهم.

وتعود البدايات الأولى لظهور الاستشراق البريطاني إلى القرن الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وذلك لبروز بعض القساوسة البريطانيين في مختلف العلوم، حيث كانوا يتلقّون تلك العلوم في بلاد الأندلس، أمثال أدلارد أوف باث (adelard of bath) عاش ما بين (463هـ- 530هـ/1070م-1135م)، والراهب دانيال أوف مورلي (Daniel if morley) (ت 586هـ-1190م)، بالاضافة إلى ميخائيل سكوت (ت 634هـ-1236م)، فهؤلاء وقع على عاتقهم تدريس اللغة العربية في بلادهم بعد عودتهم إليها، إذ ساهموا بشكل كبير في انتشار تعليم العربية في بريطانيا[30].

لقد كان اهتمام البريطانيين بتعلّم العربية وتعليمها والمساهمة في انتشارها بين الانجليز، ليس حبّا في هذه اللغة بقدر ما كان هدفهم هو استعمالها كوسيلة لنشر المسيحية بين العرب، فهذا "روجر بيكون" الذي دعا إلى تعلّم العربية وتعاليم الدين الاسلامي واتخاذها

وسيلة لنشر المسيحية، إذ لا جدوى من محاربة المسلمين بالأساليب القديمة التي لم تعد تُجدِ نفعا، وقد رحّب المجمع الكنسي في فيينا بهذا الاقتراح وجعله قرارا رسميا مفروضا على تعليم العربية في خمس جامعات أوربية كباريس (فرنسا)، وأكسفورد (انجلترا)، وبولونيا(ايطاليا)، وسلامنكا (اسبانيا) والمدينة البابوية في روما، والهدف هو تنصير المسلمين[31].

وهذا ما يبيّن أن الاستشراق خلال مراحله الأولى من ظهوره كان تحت ريادة الكنيسة لمحاربة المسلمين[32]، ولا شك في ذلك، فهي مَن قادت الحروب الصليبية كلها سواء نحو المشرق أو نحو الأندلس والمغرب، ولَمَّا لم تفلح في هذا الأسلوب؛ شاءت أن تغيّر من أسلوبها، فالغزو الثقافي والفكري أكثر تدميرا وتحقيقا للهدف من الغزو العسكري الذي بات أسلوبا تقليديا لا فائدة منه سوى الخسران في الأرواح والأموال.

لقد كان الدافع الديني هو ما حث الانجليز على التوغل في مجال الدراسات الاستشراقية وعلى وجه الخصوص ما تعلّق بالإسلام والسيرة النبوية، فالهدف كان التعرف على الاسلام والوقوف على مواطن القوة والضعف لدى المسلمين حتى يسهل ضربهم عن قرب، وقد جرّ ذلك إلى تحقيق أهداف أخرى اقتصادية تجارية وسياسية تمهيدا للسيطرة والهيمنة على معتقدات الشعوب الشرقية[33]، خاصة وأن بريطانيا كانت سبّاقة لبسط نفوذها على جنوب شرق آسيا خاصة الهند، فكان بذلك العالم العربي والإسلامي همزة الوصل بين بريطانيا ومستعمراتها.

وبالتالي فإن وات قد اشتهر من بين الانجليز الأكثر اهتماما بالسّيرة النبوية وما تعلق بحياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا فقد صار الشك عقيدة لدى وات؛ كيف لا وقد رضع هذه العقيدة من الكنيسة في حدّ ذاتها التي لم تتوقف ولو لحظة منذ قرون في محاربة الاسلام والمسلمين، وهذه العقيدة هي الوسيلة الكبرى لضرب الاسلام في عقر داره عن طريق بث سموم الشك في كل ما تعلق بالسيرة النبوية، ورُبّ قائل يقول أن وات ذهب

إلى ما ذهب إليه ديكارت في اتباعه منهج الشك من أجل اليقين، فهذا لا سبيل إلى تصديقه، فديكارت "تقوم فلسفته على الشك في المعرفة الموروثة للوصول بها إلى اليقين"[34]، أما وات فيلجأ إلى "النفي والتشكيك ليس لأن لديه دليل، وإنما لاصطدام موقفه العام من سياسة النبي صلّى الله عليه وسلّم خارج الجزيرة بالحقيقة التاريخية"[35]، وقد يتساءل أيا كان؛ لماذا كان التركيز أكثر على شخصية النبي صلى الله عليه وسلم؟ والجواب ببساطة إذا تم التشكيك والطعن في شخص النّبي عليه الصّلاة والسّلام، فإن النيل من الاسلام يصبح سهلا ميسورا، فالأمة الاسلامية قائمة ما دامت قائمة على الاقتداء بنبيها وهديه الشريف.

2- الشك وسيلة وغاية:

لعل الأسلوب الأنجع الذي رأته الكنيسة الغربية لضرب الاسلام والمسلمين هو أسلوب انتاج مفكرين ومؤرخين وعلماء؛ يكون اهتمامهم الوحيد في حياتهم هو تعلّم كل ما تعلّق بالدّين من لغة وحضارة وتراث، بل والأكثر من ذلك هو نبي الاسلام محمد عليه أفضل الصّلاة والسّلام.

ولذلك سخّر وات حياته كاملة في دراسة السّيرة النبوية والعقيدة الإسلامية، ليس حبّا للمعرفة ولا حبّا في البحث والعلم؛ بقدر ما كان يسعى جاهدا لضرب العقيدة الاسلامية وشخص النّبي محمد صلّى الله عليه وسلم، بأسلوب تاريخي نقدي حتى يُنزِل النّبي عليه الصّلاة والسّلام وما تعلّق بحياته كلها؛ منزلة الأحداث التاريخية التي يجب دراستها دراسة علمية نقدية على النهج الأوربي الغربي الحديث، ولذلك كان متحايلا جدا ومتسترا تحت غطاء التاريخ والبحث التاريخي، ولو كان حقّا فيما ادّعاه أنّه يوجه دراساته للمؤرخين لكان صادقا في بحثه ودراسته للنّبي صلّى الله عليه وسلّم، لأن دراسة حياته عليه الصّلاة والسّلام وفق المنهج العلمي الصحيح والصّادق؛ حتما توصل إلى الحقيقة التي في الأخير الاعتراف بنبوته وصدق رسالته، لا الطّعن فيها وقلب الحقائق والكذب والتدليس على

القرّاء، بعبارات تقلب حقائق التاريخ رأسا على عقب مثل ما فعل وات في بحوثه كلها، وهذا يمكن أن يطلق عليه النفاق العلمي والفكري.

وعليه فإن وات اتّخذ من التشكيك في القرآن والسّنة والسّيرة النبوية وسيلة لتحقيق مآربه، وحتى يكون ذلك المتديّن المخلص للكنيسة والنصرانية على وجه الخصّوص، وربّما يتساءل أحدهم في أن اتّخاذ الشك وسيلة معروف، فكيف تكون الوسيلة غاية في نفس الوقت؟

إن المتتبع لكتابات وات ليقف حتما على هذه الحقيقة، فقد ذكرنا آنفا أن الهدف الأسمى هو ضرب الاسلام والمسلمين، ومحاربتهم فكريا عن طريق التشكيك في كل ما جاء به هذا الدين وذاك النّبي عليه الصّلاة والسّلام، والهدف الأول هو الوقوف في وجه المد الاسلامي نحو أوربا، أما الهدف الثاني وهذا هو جواب السؤال وهو زرع الشك بين أوساط المسلمين في حد ذاتهم، حتى يتكوّن فكر جديد يسعى لضرب الاسلام بيد أبنائه في حدّ ذاتهم، وهذا ما كان فعلا من بروز طائفة مسلمة سواء كانوا أدباء أو مؤرخين متأثرين بالحضارة الغربية سرت فيهم تلك الشكوك وعملت عملها فيهم.

خاتمة:

يمكن أن نخلص في الأخير إلى ما يلي:

– كل ما كتبه المستشرقون بوجه عام وما كتبه وات على الخصّوص وما قالوه وما فكروا فيه هو توجيه للرأي العام الأوربي والغربي دون استثناء، وبعض أولئك العرب والمسلمين المتأثرين بالحضارة الغربية، إذ يقولون لهم حين يقولون: هذه هي الحضارة الاسلامية التي غزت العالم ذات يوم، لا تعدو إلا اجتهادات قام بها محمّد عليه الصّلاة والسّلام وتزعّمها، فما هو بذلك إلا مصلح اجتماعي أصاب في البعض وأخطأ في الكثير، ولا يرقى إذاك إلى نبوة موسى أو المسيح عليهما السلام، ودليلهم في ذلك ما روّجوا له من تأثيرات تركتها اليهودية والمسيحية وطبعها النّبي عليه الصّلاة والسّلام بطابعه الخاص.

– اصطنع وات حيادية من نوع خاص في كتاباته، إذ سرعان ما تنكشف تلك الحيادية المزيّفة بدعوى العلم والبحث الموضوعي والتاريخي ومحاولة تحليلها ونقدها، تنكشف للقارئ بمجرد قراءة كتاباته تلك، فمهما يكن على درجة من الحيادية والنزاهة فإنها ولا بد أن تسقط في قصوره عن الفهم الصحيح للقرآن والسنة على السّواء، وهذا ما يشكل خطرا على الدّين وبتدمير الثقة به من خلال التشكيك في كل جزئياته.

– كثيرا ما وقع وات في التخبط فمن جهة لا يعترف ولا يقرر إن كان القرآن فعلا هو وحي من الله وكلامه، ومن جهة أخرى يدعي أن الوحي نزل على النبّي يأمره بالرّجوع إلى الله في كافة الخلافات، وهذا عندما يريد تبريرا لأفكاره هو لا غير، رغم أنه يصرّح بأنه في حالة ما إذا ذكر الوحي على محمد لا يعني أنه يعتقد بنسبة القرآن إلى الله، وبهذا فهو يلوي أطراف الحديث ليّا للمرواغة والتدليس على القرّاء، وبالتالي فإن وات لا يفقه شيء في روح السيرة النبوية ولا الرسالة السماوية.

---

[1]– ماهر جواد كاظم الشمري، النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مؤلفات وات – عن السيرة النبوية دراسة مقارنة تحليلية، العتبة العباسية المقدسة، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، 1440هـ- 2019م، ط1، ص: 48.

[2]– نفسه، ص: 48 وما بعدها.

[3]– مونتغمري وات، محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، صيدا؛ لبنان، دتا، ص: 5.

[4]– نفسه.

[5]– نفسه. أيضا: عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية- بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر مونتغمري واط، كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والاسلامية، ج1، مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ادارة الثقافة؛ تونس، 1985م، ص: 121. أيضا: عبد العظيم المطعني، افتراءات المستشرقين على الاسلام – عرض...ونقد، الناشر مكتبة وهبة، القاهرة، 1413هـ-1992م، ط1، ص: 9 وما بعدها.

[6]– ماهر الشمري، النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مؤلفات وات، ص: 52، 53.

[7]– مونتغمري وات، نفسه، ص: 101.

[8]– نفسه، ص: 93. أنظر: رائد أبو رية، السيرة النبوية في فكر (مونتغمري وات، وكارين أرمسترونج)- دراسة تحليلية تقويمية، (رسالة ماجستير)، إشراف عبد المنعم صبحي أبو شعيشع، جامعة الأزهر الشريف، مصر، دتا، ص: 150 وما بعدها.

[9]– مونتغمري وات، محمد في مكة، ص: 77.

[10]– عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1417هـ- 1997م، ص: 38

[11]– وات، نفسه، ص: 110.

[12]– عبد الله النعيم، نفسه، ص: 40.

[13]- ماهر الشمري، النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مؤلفات وات، ص: 54.

[14]- عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، ص: 41.

[15]- مونتغمري وات، محمد في المدينة، تعريب شعبان بركات، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، صيدا؛ لبنان، دتا، ص: 16.

[16]- نفسه، ص: 67.

[17]- كاظم عبد الرزاق الحسيني، قراءة في كتاب (محمد: النبي ورجل الدولة) للمستشرق البريطاني مونتغمري واط، مجلة دراسات استشراقية، ع11، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق، ربيع 2017م- 1438هـ، ص: 145.

[18]- عبد الله النعيم(نقلا عن وات)، نفسه (نقلا عن وات)، ص: 42.

[19]- أكرم ضياء العمري(نقلا عن وات)، موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية، كلية الدعوة؛ الجامعة الاسلامية، المدينة المنورة، دتا، ص: 60.

[20]- محسن راشد طريم(نقلا عن وات)، الجوانب المظلمة في كتابات المستشرقين البريطانيين في السيرة النبوية، مجلة جامعة ذي قار، ع2، مج 4، جامعة ذي قار، أيلول 2008م، ص: 118.

[21]- عبد الله النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، ص: 45.

[22]- نفسه.

[23]- نفسه، ص: 43. أيضا: نعمات محمد الجعفري، العيوب المنهجية في سياق الروايات الحديثة عند المستشرق مونتغمري وات في كتابيه: "محمد في مكة" "محمد في المدينة، مجلة الشريعة والدراسات الاسلامية، ع97، جامعة الكويت، شعبان 1435هـ-يونيو 2014م، ص: 170 وما بعدها.

[24]- عبد الرحمن عميرة، الاسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق، دار الجيل؛ بيروت، دتا، ص: 120.

[25]

[26]- ابن منظور، لسان العرب، ج10، دار صادر؛ بيروت، دتا، ص: 451.

[27]- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج1، ص: 491.

[28]- ماهر الشمري، النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مؤلفات وات، ص: 40.

[29]- نفسه.

[30]- نفسه.

[31]- نفسه، ص: 41. حول علاقة الاستشراق بالتنصير أنظر: حسن محمد نايف غالب، العلاقة بين التنصير والاستشراق من حيث النشأة والأهداف، (رسالة ماجستير)، إشراف محمد عثمان صالح، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، المملكة العربية السعودية، 1405هـ-1406هـ/ 1985م- 1986م، ص: 98 وما بعدها.

[32]- ماهر الشمري، النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مؤلفات وات، ص: 42.

[33]- نفسه، ص: 44.

[34]- عمر بن مساعد الشريوفي، موقف المستشرق مونتغمري وات من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال كتابه "محمد في المدينة"- دراسة نقدية، (رسالة ماجستير)، إشراف عبد الله الرحيلي، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، المملكة العربية السعودية، 1415هـ-1416هـ، ص: 100.

[35]- نفسه، ص: 104.